10

الإنكار

كانت هوية عميلة المخابرات المركزية الأمريكية قد تسربت قبل أيام وأسابيع من استلامي منصبي الجديد سكرتيراً صحفياً للبيت الأبيض في الخامس عشر من شهر تموز، يوليو، سنة 2003. بعد سنتين على حدوث ذلك، بدأت أعرف من كان متورطاً في عملية التسريب تلك؛ وبعد انقضاء تسعة أشهر على ذلك التاريخ، اطلعت على المعلومات الصادرة عن تقويم الاستخبارات الوطنية التي تم الكشف عن سريتها – في الوقت نفسه، كانت وسائل الإعلام الإخبارية تكشف عن هذا الموضوع للعالم أجمع.

من الصعب على كل من ليس ملماً بطبيعة الحياة في واشنطن، أن يستوعب العالم المنغلق للبيت الأبيض في عهد بوش. لكن كبار مستشاري الرئيس كانوا يعتقدون أن هناك أسباباً وجيهة تستدعي إبقاء طبيعة الحملة ضد جو ويلسون طي الكتمان. فالرئيس ومن حوله كانوا متفقين على أنه من الضروري في بيئة مثل بيئة الحملة الدائمة في واشنطن، إبقاء الرئيس دائماً محصناً ضد الجانب المقيت للسياسة، أو أي سقطات محتملة ناجمة عنها. وعليه أن يبقى مترفعاً عن أي مشاجرة، وغير متورط في أي مشاحنات عدائية مكشوفة بين مستشاريه. وقد تعمد أن لا يعرف إلا أقل القليل عن التكتيكات التي يستخدمونها.

لهذا السبب، فإن السؤال الشهير الذي طرحه هوارد بيكر في حقبة ووترغيت: «ماذا كان الرئيس يعرف، وما الذي فعله حيال ذلك؟» لا يدخل في السياق المتصل بالحكم على السلوك الأخلاقي لإدارة بوش، أو في حقيقة الأمر، لأي إدارة حديثة أخرى سبقتها. فقد انتبه أفراد طاقم البيت الأبيض إلى أهمية حماية الرؤساء من معرفة ما قد يجرّمهم. في ظل هذه الظروف، يمكن أن لا تكون حقيقة أن الرئيس «لم يكن يعلم» دفاعاً ذا معنى، بل مجرد حقيقة مؤسفة أخرى حول الكيفية التي تتم فيها الأمور في واشنطن.

في شهر حزيران، يونيو، سنة 2003، بدأت الحملة للنيل من مصداقية جو ويلسون المنتقد لاستخدام البيت الأبيض المخابرات لدعم فكرة شن الحرب. وكما تمت الإشارة سابقاً، كان نيكولاس كريستوف قد نشر تعليقاً في صحيفة نيويورك تايمز أشار فيه إلى مصدر لم يكشف عن هويته (تبين لاحقاً أنه جو ويلسون) يتهم فيه إدارة بوش بتجاهل الدليل الذي يضع بعض ادعاءاتها حول أسلحة الدمار الشامل العراقية محل تساؤل. كما نشر والتر بينكوس، وهو صحفي كان يعمل لمدة طويلة في صحيفة واشنطن بوست رواية لاحقة لتقصي الحقائق، قدم فيها تفاصيل تتناقض مع المقالة الأحادية الجانب عن النيجر، والتي نشرها كريستوف، في الوقت الذي استمر في التشكيك بمصداقية الإدارة حول الموضوع الأشمل المتعلق بالتقارير الاستخباراتية قبل الحرب.

في أوائل شهر حزيران، وفي الوقت الذي كان ما يزال يجري تحريات عن مضمون ما كتبه كريستوف، اتصل بينكوس بكاثي مارتن المشرفة على مكتب اتصالات نائب الرئيس. ذهبت مارتن إلى سكووتر ليبي لمناقشة ما كان بينكوس يتحسسه من معلومات. كان نائب الرئيس وليبي يُصَعّدان بهدوء حملتهما لمجابهة مزاعم الموفد إلى النيجر المجهول الهوية؛ وكانت رواية بينكوس فرصة ثمينة لهما للقيام بذلك. أملى نائب الرئيس على ليبي النقاط التي عليه التحدث حولها، وهو بدوره استخدمها عندما كان يجيب على أسئلة بينكوس.

في الثاني عشر من شهر حزيران، يونيو، سنة 2003، تحت عنوان «وكالة المخابرات المركزية لا توافق على الشكوك المثارة حول البيانات بشأن العراق»، نشر بينكوس أنه بينما فندت البعثة التي أوفدتها وكالة المخابرات المركزية إلى النيجر المزاعم بشأن مسألة اليورانيوم والتي استخدمها الرئيس في خطابه حول حال الاتحاد، فإن هذه المعلومات لم تصل أبداً إلى المسؤولين في البيت الأبيض. وبدلاً من ذلك، أخفقت وكالة المخابرات المركزية «في إطلاع أي جهة على ما كانت تعرفه»، ومن ثم فقد ساعدت في «إبقاء رواية اليورانيوم حية» إلى حين إلقاء البرادعي تقريره في مجلس الأمن الدولي. كتب بينكوس أن وكالة المخابرات المركزية.

«لم تذكر تفاصيل كان قد تضمنها تقرير السفير السابق، أو تكشف عن هويته بصفته مصدراً للمعلومات، وهو ما كان سيدعم مصداقية ما اكتشفه، وذلك في تقاريرها الاستخباراتية التي تتقاسمها مع منظمات حكومية أخرى. بدلاً من ذلك، لم تذكر وكالة المخابرات المركزية سوى أن المسؤولين في حكومة النيجر أنكروا أن تكون صفقة مثل هذه قد عقدت، كما ذكر أحد كبار المسؤولين في الإدارة».

ذكّرَ «أحد كبار المسؤولين في وكالة المخابرات المركزية» لم يشأ الإفصاح عن هويته بينكوس بأن التقرير الاستخباراتي بشأن اليورانيوم «لم يكن سوى واحد من العوامل التي أدت إلى شن الحرب. كانت هناك أسباباً أخرى عديدة». لكن «أحد كبار المحللين في وكالة المخابرات المركزية» أشار إلى أن مسألة اليورانيوم برمتها من الزاوية الأشمل، «تدل على وجود مشكلات أكبر» فيما يتعلق بالاستخبارات حول برامج الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية في العراق، بالإضافة إلى ما نسب عن علاقته بالقاعدة. أشار هذا المحلل أنه في معرض التمهيد لشن الحرب على العراق «تم إهمال معلومات لا تتفق مع أهداف الإدارة، كما لم يتم التدقيق بشكل جدي في معلومات أخرى [تتفق] مع موقف الإدارة».

صب عمود الرأي الذي كتبه بينكوس الزيت على نار اللغط المتزايد. حتى وهو يشير إلى أن البيت الأبيض لا يتحمل أي مسؤولية فيما يتعلق بالمزاعم بشأن النيجر، فإنه كرس الاعتقاد الذي بدأ بالانتشار أن مزاعم الإدارة حول أسلحة الدمار الشامل العراقية استندت إلى معلومات استخباراتية مزيفة، بل وأسوأ من ذلك، فقد تعمدت الإفراط في مبالغتها حول هذه المسألة من أجل تضليل الأمة التي ساقتها إلى الحرب.

في هذا الجو من اللغط المتزايد – ومع عدم اكتشاف أي أسلحة دمار شامل في العراق – فإن مصدر المعلومات المجهول الهوية الذي أشار إليه كريستوف، وهو جو ويلسون، قرر الخروج إلى العلن.

في الأحد الواقع في السادس من شهر تموز، يوليو، نشر ويلسون في أحد أعمدة الرأي في صحيفة نيويورك تايمز مقالاً بعنوان: «ما الذي لم أعثر عليه في إفريقيا». اتهم فيه

بشكل لا لبس فيه الإدارة في أنها استغلت المخابرات حول برنامج الأسلحة النووية في العراق لتسويغ العمل العسكري الذي قامت به وذلك عبر المبالغة أو الإفراط في توصيف هذا التهديد.

بعد إجرائه العديد من اللقاءات مع مسؤولين حكوميين حاليين وسابقين، ومع أشخاص لهم علاقة بتجارة اليورانيوم في النيجر، كتب ويلسون في صحيفة التايمز ما يلي: «لم يستغرقني الكثير من الوقت قبل أن أصل إلى الاستنتاج أن من المشكوك فيه جداً أن تكون قد تمت أي صفقة في هذا الشأن على الإطلاق». كما ذهب إلى أبعد من ذلك عندما عبر «عن الثقة المطلقة» بأن المعلومات التي «قدمها قد تم إيصالها إلى المسؤولين المعنيين في حكومتنا».

وفي معرض تساؤله عن الكيفية التي وظفت فيها «قيادتنا السياسية» هذه المعلومات قال ويلسون أنه «إذا كانت المعلومات قد تم تجاهلها لأنها لم تُرْضِ بعض أصحاب الآراء المسبقة الصنع حول العراق، فإن من المنطقي القول إننا خضنا الحرب بناء على ادعاءات زائفة».

في ذلك اليوم نفسه، وأثناء مقابلة مع مقدمة برنامج «واجه الصحافة» أندريا ميتشيل، أكد ويلسون أنه «مقتنع تماما» بأن مكتب نائب الرئيس تلقى «إجابة محددة جداً» مبنية على نتائج رحلته لأن هذا هو «الإجراء العملياتي المعياري» في حال إثارة مثل هذا السؤال من قبل مكتب رفيع المستوى كمكتب نائب الرئيس.

وفي معرض إبداء قناعته أن الإدارة كانت تعرف بشكل لا يقبل التأويل بأن المعلومات حول مسألة اليورانيوم كانت خاطئة، إذا كان الأمر يتعلق بالنيجر تحديداً، فإن ويلسون أشار إلى أن هذه الإدارة استخدمت هذا الموضوع بطريقة انتقائية بشكل يتماشى مع تقارير استخباراتية أخرى وذلك «لدعم قرارها» خوض الحرب، وهو القرار الذي كان قد تم اتخاذه سلفاً، وأن استخدام موضوع أسلحة الدمار الشامل لم يكن سوى ذريعة استخدمت «كغطاء» لأسباب أخرى كانت هي الدافع لغزو العراق.

حَوّلَ أداء ويلسون بقعة الضوء باتجاه الاتهام الذي وجهه كريستوف ومنتقدون آخرون من أن إدارة بوش قد ضللت عن عمد الشعب الأمريكي. كما أثار ذلك حنق نائب الرئيس؛

وزود وسائـل الإعـلام الوطنية بمادة دسمة للغط، بما في ذلـك شخصية براقة تجيد فن الكلام، وجاهزة كي تلقي اتهامات تفجيرية في وجه كبار المسؤولين.

كان توقيـت هجوم ويلسون سيئاً بالنسبة لإدارة بوش. فقد كان ضمن برنامج الرئيس القيـام بجولـة دبلوماسية مهمة إلى إفريقيـا (من المفارقة أنها القـارة التي انطلق منها اللغط حـول مسألة اليورانيوم). أكثر من ذلك، كان النصف الأول من شهر تموز، يوليو، المرحلة الانتقالية لنقل صلاحيات آري فليشر لي كسكرتير صحفي للبيت الأبيض. ولكننا كنـا نعرف جميعـاً أنه ليس بمقدور الرئيس دائماً اختيار كيـف ومتى يتعامل مع مثل هذه الأمـور. في بعض الأحيان، تفرضـ عليه الأحداث التي تقع خـارج سيطرته مواجهتها في أوقات غير مناسبة. وكان هذا واحد من تلك الأوقات غير المناسبة.

وحيث إن الرئيس كان سيغادر واشنطن صباح الاثنين ذاك، فلم يكن هناك من مجال إلا إلى لقاء صحفي واحد في البيت الأبيض، على شكل حوار بعيداً عن أعين الكاميرا. إلا أن مقالة ويلسون المتزامنة مع أسئلة ملحة طرحتها الصحافة صبيحة ذلك اليوم، ستدفع بالبيت الأبيض إلى الاعتراف بارتكاب خطأ جسيم – وهو شيء نادر الحدوث بالنسبة إلى أي إدارة، خصوصاً بالنسبة إلى إدارة بوش.

حاول آري فليشر خلال الدردشة مع الصحفيين بعد أن زوده مكتب نائب الرئيس بنقاط الـرد، تصويـر مقالة ويلسون على أنها لم تقـدم ما هو جديد باستثنـاء الكشف عن هوية المندوب الذي أوفد إلى النيجر. كما خالف فليشر فكرة أن تشيني وآخرين في الإدارة كانوا قد أحيطوا بالمعلومات التي عاد بها ويلسون. قال فليشر: «لم يطلب مكتب نائب الرئيس منه القيـام بمهمـة في النيجر؛ ولم يتم إعلام مكتب نائب الرئيس عـن مهمته، كما أنه لم يكن على اطلاع على مهمة السيد ويلسون» إلا بعد أن تم نشرها في وسائل الإعلام مؤخراً.

لكـن فليشر فجّـرَ قنبلة صغيرة من غير قصد: «لقد اعترفنا منذ مدة طويلة – وهذا ليـس خـبراً جديداً لأننا قلناه مـراراً وتكـراراً – أن المعلومات التـي وردت حول «الكعكة الصفـراء» تبـين أنها في الواقـع معلومات خاطئـة». ما قالـه فليشر كان أبعـد ما يكون عـن وصفه « بمعلومـات قديمة» بالنسبة لأولئـك الذين يتابعون هـذه القضية عن كثب.

صحيح أنه ومنذ الخطاب حول حال الاتحاد في شهر كانون الثاني، يناير، اعترفت وكالة المخابرات المركزية علناً أن التقرير الاستخباراتي حول قضية النيجر استند إلى معلومات غير صحيحة ومضللة. لكن فليشر يبدو الآن وكأنه يشير وللمرة الأولى أن كلمات الرئيس الست عشرة في خطابه حول حال الاتحاد استندت بشكل رئيس إلى وثائق النيجر. حتى تلك اللحظة، كان البيت الأبيض يصر على أن الرئيس استخدم لغة التعميم بشكل متعمد بحيث تتضمن دولاً إفريقية أخرى بالإضافة إلى النيجر.

التقط الصحفيون هذا الخيط الرفيع، وأمطروا فليشر بوابل من الأسئلة. وبعد تلقيه للعديد من أسئلة من الصحفيين وعلى رأسهم الصحفي المخضرم ديفيد سانغر من صحيفة نيويورك تايمز، انسحب فليشر بهدوء قائلاً إنه سوف يصدر بياناً يتضمن «الإجابة الدقيقة حول التصريح بإطاره العام فيما يتعلق بالخطاب» في وقت لاحق من ذلك اليوم. كان اعترافه بأن ما قاله الرئيس كان خطأ يُعتَبر بحد ذاته خبراً مهماً، وكان لا بد من مناقشته من قبل كبار المستشارين، وموافقة الرئيس عليه.

جرت الكثير من المناقشات طيلة ذلك اليوم بين مستشاري الرئيس حول الاعتراف بما كان واضحاً أو إنكاره. كانت كوندوليزا رايس مستشارة الأمن القومي من بين أكثر المتحمسين للإقرار بهذا الخطأ، وقد وافق الآخرون على وجهة نظرها. أعلن البيت الأبيض بعدها أن «هناك تقريراً آخر يشير إلى أن العراق حاول الحصول على اليورانيوم من إفريقيا؛ إلا أن هذه المعلومات غير تفصيلية وغير محددة لدرجة تجعلنا متأكدين أن محاولات مثل هذه قد تمت بالفعل». لم يكن تقويم الاستخبارات الوطنية حول أسلحة الدمار الشامل في العراق قد نزعت عنه السرية رسمياً بعد، ولم يكن قد وضع بعد قيد التداول العام (بالرغم من أنه، كما علمت لاحقاً، تم نزع صفة السرية عنه بشكل سري كي يطلع عليه نائب الرئيس). وبالرغم من أن دولتين إفريقيتين أخريين قد تم ذكرهما في تقويم الاستخبارات الوطنية على أنهما مصدران محتملان لتزويد العراق باليورانيوم، فإن التقرير الاستخباراتي المحدد والمفصل والوحيد المتعلق بالمحاولات العراقية للحصول على اليورانيوم من إفريقيا كان يشير فقط إلى النيجر، وكان واضحاً أن هذا هو المستند الرئيس الذي انبثقت منه كلمات الرئيس الست عشرة.

نُسِبَ إلى «مسؤولين كبار «بعد حصولهم على إذن من الرئيس أنهم يدققون في مسألة التراجع هذه. نشر والتر بينكوس في صحيفة واشنطن بوست خبراً بعنوان «البيت الأبيض يتراجع عن مزاعمه بشأن المشتريات العراقية»، وتضمن هذا الخبر الاقتباس الآتي: «بعد أن اطلعنا على ما بتنا نعرفه الآن، فإن الإشارة إلى محاولة العراق الحصول على اليورانيوم من إفريقيا، كان يجب أن لا تكون ضمن الخطاب الذي ألقي عن حال الاتحاد». نقلت صحيفة نيويورك تايمز أيضاً تصريحاً لمسؤول كبير قوله: «لم يكن بإمكاننا إثبات ذلك، ويمكن أن نكون في واقع الأمر على خطأ».

كان هذا هو الاعتراف العلني الأول بأنه كان على الرئيس أن لا يذكر شيئاً عن المزاعم بشأن اليورانيوم في خطابه عن حال الاتحاد، وأن المعلومات التي بنيت عليها تلك المزاعم كانت ناقصة وغير دقيقة. الجميع في البيت الأبيض كان يأمل أن يساعد هذا الاعتراف في وضع الكلمات الست عشرة وراء ظهورنا. لكن الحقيقة كانت عكس ذلك.

كان من المفترض بي كوني نائباً للسكرتير الصحفي أن أكون ضمن الطاقم الصحفي الموسع التابع للبيت الأبيض المرافق للرئيس في رحلته إلى إفريقيا على متن طائرة مستأجرة. ولكن بما أن آري كان على وشك ترك منصبه، قررت بدلاً من ذلك أن أقوم ببعض التحضيرات لوظيفتي الجديدة. وهكذا، فبينما بدأ اللغط يزداد اتقاداً، والرئيس في طريقه إلى إفريقيا، منحت نفسي إجازة قصيرة لتصفية ذهني وللحصول على نصائح من بعض أسلافي الذين شغلوا هذا الموقع في الإدارات السابقة، وتلقي آراء من كبار المديرين في مجلس الأمن القومي حول أولوياتهم فيما يتعلق بالسياسة الخارجية. ونظراً إلى أن خلفيتي المهنية كانت بالأساس في مجال الاتصالات والعمل السياسي في ولاية تكساس وليس في مجال السياسة الخارجية فقد كنت أرغب في التعرف عن كثب على أكثر المناطق أهمية في الخارج، مولياً أهمية استثنائية لأكثرها سخونة.

كنت على علاقة وطيدة بكوندي رايس وبنائبها ستيفن هادلي؛ ذلك أن الاجتماعات تساعد في التأسيس لعلاقات جيدة، وكذلك لتقويتها مع العاملين في مجلس الأمن القومي الذين كنت أستطيع الاعتماد على خبراتهم وقت الحاجة.

ثبت لي أن محاولاتي لتعليم ذاتي آتت أُكُلَها. ولكن في الوقت نفسه، كان اللغط الناجم عن موضوع النيجر الذي وصل إلى مستوى مقلق، قد بدأ بالاتساع. ففي واشنطن، لا يكفي أبداً أن تعترف بالخطأ. فالصحافة تنتقل بعدها إلى إثارة أسئلة مرتبطة بهذا الخطأ: كيف حدث هذا الخطأ؟ من كان المسؤول عن هذا الخطأ؟ ما هي عواقب هذا الخطأ؟ لا تتوقف هذه الأسئلة حتى يشعر وحش وسائل الإعلام المتضور جوعاً بالرضا في أنه اصطاد كل الحقائق.

وحالما انتشر الخبر في أرجاء المعمورة، كان فريق طوني بلير يستشيط غضباً بشكل سري من البيت الأبيض. كانت الحكومة البريطانية - التي قدمت دعماً هائلاً لبوش في العراق - تؤكد على صحة المزاعم بشأن قضية النيجر، قائلة إن استخباراتها كانت تستند إلى معلومات لا علاقة لها بالوثائق المزورة. وهذا ما جعل من تراجع البيت الأبيض إحراجاً شديداً يمكن أن يدفع الصحافة إلى القيام بهجوم لاذع على رئيس الوزراء طوني بلير في المدى القريب.

أبقى الديمقراطيون على هذا اللغط في حال من الغليان حيث طالبوا بفتح تحقيق في الكونغرس حول هذه المسألة. سأل كارل ليفن العضو الممثل للأقلية في لجنة القوات المسلحة كيف أصبحت المزاعم المزيفة حول اليورانيوم جزءاً من القضية التي دفعت باتجاه الحرب، كما أشار تيد كينيدي إلى أن ذلك كان «خداعاً مقصوداً». وسواءً كانت هذه الانتقادات تمثل تعبيراً عن قلق مشروع، أو أنها كانت مجرد مطية لمكاسب سياسية فإن هذه الجهود التي بذلوها لزيادة الشكوك حول البيت الأبيض كانت تمثل جزءاً طبيعياً من الحرب الحزبية المستمرة التي وعد الرئيس بوش بوضع نهاية لها. والآن، فالطريق التي اختارها الرئيس لتسويق الحرب للشعب الأمريكي، وتردده في مناقشة كيف تمت هذه المسألة برمتها بانفتاح وبصورة مباشرة، أظهرا بما لا يقبل الشك أنه لن يلتزم بالوعد الذي قطعه.

غطى اللغط حول قضية اليورانيوم على رحلة بوش إلى إفريقيا، بما في ذلك جهوده لزيادة تمويل الإغاثة بمعدل ثلاثة أضعاف من أجل محاربة مرض نقص المناعة المكتسبة،

والملاريا، وإعطاء الأفارقة الأمل عبر تشجيع التنمية. كان كل ذلك مؤشراً على ما يحمله المستقبل، ذلك أن إدارة بوش ستجد أن اللغط المستمر حول العراق سوف يلقي بظلاله على إنجازاتها كلها.

رد البيت الأبيض بهجوم معاكس ضد منتقديه في وسائل الإعلام والكونغرس على عدة جبهات. ففي معرض محاولة البيت الأبيض الدفاع عن نفسه ضد الاتهامات التي كيلت له بممارسة سوء الأمانة، والتي أطلقها عليه جو ويلسون، قاد نائب الرئيس تشيني وأركانه حملة البيت الأبيض للنيل من مصداقية جو ويلسون نفسه. فمن الزاوية الأشمل، حاول البيت الأبيض تمرير فكرة أن التقرير الاستخباراتي قد تم «طبخه» عبر إظهار أن وكالة المخابرات المركزية هي من أطلقته وأفسحت له الطريق نحو الظهور. فمعظم المراقبين – من منتقدي الحرب والمؤيدين لها، من ديمقراطيين وجمهوريين – اتفقوا على فرضية أن صدام كان يمتلك برنامج أسلحة دمار شامل. فقط الآن، وبعد ظهور الحقائق، فإن قيام بعض كبار المنتقدين، بالنأي بأنفسهم عما كانوا يعتقدون به سابقاً، واستخدامهم اللهجة الحزبية في هجومهم، اضطرنا إلى القيام بهذا الهجوم المعاكس.

لكن هذا الموقف لم يغلق الباب أمام السؤال الذي فرض نفسه على بساط البحث: كيف، ولماذا أخفقت استخباراتنا بهذا الشكل المريع حول العراق؟ وكيف للمزاعم حول صفقة النيجر التي اتضح أن لا مصداقية لها الآن، أن تحوّل الخطاب حول حال الاتحاد إلى أكثر الخطابات المدعاة للتدقيق على مدار السنة؟

في لقائها الصحفي مع فريق الصحفيين على متن طائرة الرئاسة المتوجهة إلى أوغندا في الحادي عشر من شهر تموز، يوليو، أُمطرت كوندوليزا رايس بوابل من الأسئلة – بلغ عددها أربعين سؤالاً – حول «الكلمات الست عشرة» المشؤومة. وبينما نبهت أن البريطانيين ما زالوا متشبثين بموقفهم بشأن المزاعم حول صفقة اليورانيوم، وأن تقويم الاستخبارات الوطنية أشار إلى جهود بذلت «للحصول على الكعكة الصفراء من أكثر من دولة إفريقية»، وليس فقط من النيجر، أضافت رايس قائلة: «إن لنا معايير ذات مستوى

أعلـى لتضمينـه في خطابات الرئيس. فنحـن لا نتسبب في أن يكـون الرئيس شاهداً على نفسه. ولهذا السبب، نقوم بإرسالها من أجل تدقيقها».

سئلت رايس: هل صحيح أن وكالة المخابرات المركزية عبرت عن شكوكها حول المزاعم بشأن صفقة النيجـر للبيت الأبيض قبل الخطاب حول حال الاتحاد؟ أجابت رايس: «لقد قامـت الوكالة بتدقيق الخطاب من ألفه إلى يائه؛ ولـو قالت الوكالة، أو مديرها، احذفوا هـذا المقطع من الخطـاب، فسيتم حذفه من الخطاب؛ كان هذا الجزء سيختفي من دون أي مناقشـة. ومـا قلناه لاحقاً، هو أننا لو كنا نعرف حينها ما نعرفه الآن من أن بعضاً من وثائق صفقة النيجر مزورة بشكل واضح، ما كنا وضعنا هذه الجزئية في خطاب الرئيس». (اكتشفـت رايس بعد عـدة أيام على ذلك، أن مجلس الأمن القومي الذي تديره قد تحمل المسؤولية الرئيسة عن هذا الخطأ).

هـل كانت رايس تحمّل وكالة المخابـرات المركزية وزر الخطأ المتعلق بالنيجر؟ وذلك كـي تقوم بنقله بعض الصحف بعد ذلك اللقاء الصحفي - وهي محقة في ذلك. أنكرت رايـس أن يكون هذا هـو السبب. لكن وبعض مضي عدة ساعـات على ذلك، علّقَ جورج تينيـت، مدير وكالة المخابـرات المركزية اللوم على هذا الإخفـاق الاستخباراتي - بناء على طلب من البيت الأبيض. قال تينيت مظهراً ولاءه الذي سيساعد في إزاحة المسؤولية عن كاهل الرئيس ومَن حوله: «أتحمل المسؤولية عن عملية الموافقة التي أعطتها الوكالة التي أديرها».

هـل كان مـن الممكن رفع غطاء السرية عـن الجزئية المتعلقة «بالكعكـة الصفراء» في تقـويم الاستخبـارات الوطنية الصادر في شهـر تشرين الأول، أكتوبـر، وذلك كي يتمكن الشعـب الأمريكي من أن يحكم بنفسه حول ما إذا كانت الإدارة قد بالغت بشأنه؟ أجابت رايـس عن هذا السؤال، وكانت بذلك تعكس وجهة السياسة المعلنة، أن البيت الأبيض «لم يشـأ محاولـة الدخول في أي نوع من أنـواع رفع السرية بشكل انتقائـي، لكننا ننظر في ما يمكن أن يتوافر بين أيدينا». لم تكن رايس مطلعة حينها على حقيقة أن الرئيس بوش كان قـد وافـق على «رفع السرية بشـكل انتقائي» عن أجزاء من تقـويم الاستخبارات الوطنية

بشـكل يمكن نائب الرئيـس أو كبير مساعديه سكوتر ليبي مـن استخدامها لشرح موقف الإدارة إلى عدد من الصحفيين المختارين بشكل انتقائي.

لم تعجب قادة الجمهوريين في الكونغرس مشاهدة تبرير الرئيس لشن الحرب يتهاوى في الوقـت الذي يقترب موعد موسم الانتخابات سنة 2004. بعضهم رأى في تنطح تينيت لتحمـل المسؤولية مسوغاً لكي ينئـوا بأنفسهم - وبالرئيس الجمهوري - عن تحمل أي لوم بشـأن ذلـك. هاجم بـات روبرتس، رئيس لجنـة الاستخبارات في مجلـس الشيوخ تينيت بشدة، وقد وصفته صحيفة نيويورك تايمز بأنه «قلق بسبب المعالجة القذرة جداً للمسألة منذ البداية من قبل وكالة المخابرات المركزية». كما عبر روبرتس عن استيائه من «حملة التسريبـات الصحفية التي تقوم بها وكالـة المخابرات المركزية في محاولة منها للنيل من مصداقيـة الرئيس»؛ وهي إشـارة إلى مسؤولين في وكالة المخابرات المركزية يدافعون عن أنفسهم بشأن التقارير الاستخباراتية حول أسلحة الدمار الشامل العراقية عبر تلميحهم إلى أن صانعي السياسة قد حذفت بشكل انتقائي بعض ما جاء في التقارير الاستخباراتية بهدف جعل قضية الحرب أكثر قبولاً.

هـذا الشجـار كان سيجعل وكالة المخابرات المركزية التـي تتمتع بحماية ذاتية تتنحى جانباً منتظرة بهدوء أخذ الثأر من البيت الأبيض. وكان من الممكن للانتخابات التي تلوح في الأفق أن تمثل بداية جيدة.

أحبـت الصحافة هذا النوع مـن الشجار. هناك القليل من الأشيـاء التي يستمتع بها الصحفيـون أكـثر من تغطيتهم للغط الناجـم عن الشجار الداخلي بـين أفرقاء الإدارة، والفرصـة التي يوفرها هذا الشجار للثرثرة وتصفية الحسابات ومكائد الأبواب الخلفية. وخـلال أيام، ستكون هناك صدمة أخرى مـن قبل وسائل الإعلام تساعد في زيادة كثافة التغطية أكثر فأكثر.

هـذه المـرة، لم يكن أعضـاء «الصحافة الليبراليـة» هم من فجّر القنبلـة، بل المعلق، والناقـد، والصحفي المحافـظ المعروف، الماكـر، ذو الحاجبين الشبيهـين بصرصارَيْن، روبـرت نوفاك. ففي الرابع عشر من شهر تمـوز، يوليو، سنة 2003 وفي مقالة له بعنوان:

«مهمـة في النيجـر»، قـدم نوفـاك تحقيقاً عـن الكيفية التي رتبـت فيها مهمـة ويلسون، والاستنتاجـات التـي توصلت إليها. قبـل نهاية المقالة بقليل، تم الكشـف عن سرٍ كان من السهولة بمكان أن لا يوليه القارئ الاهتمام الكافي؛ لكن هذا السر بدأ يتدحرج ككرة الثلج باتجـاه التحقيق الذي تعهـدت وزارة العدل بإجرائه. كشف نوفـاك أن «ويلسون لم يعمل أبـداً لصالـح وكالة المخابرات المركزية، بل زوجته فاليري بليـم، التي تعمل بصفة عميلة للوكالـة في مجـال أسلحة الدمـار الشامل. ذكـر لي اثنان من كبار المسؤولـين في الإدارة أن زوجـة ويلسون هـي من اقترح إيفاده إلى النيجر للتحقيـق في تقرير إيطالي [حول بيع الكعكة الصفراء]».

كانـت الغاية من ذكر اسم زوجة ويلسون بالطبـع، أن تلغى من التداول فكرة أن نائب الرئيـس تشينـي هـو من قام بترتيب مهمـة ويلسـون إلى النيجر بشكل أو بآخـر. كما أن حقيقـة أن زوجـة ويلسون متورطة، تحمـل في طياتها نفحة من محابـاة الأقارب، وهو ما يوحـي بشعـور غامض أن في المهمة ما يدعـو إلى الريبة – كمـا لو أن ويلسـون قد أوفد مـن قبل زوجته «في رحلة ترفيهية» وهنـا أقتبس العبارة من خربشات على هامشِ نسخته الخاصـة مـن العمود الذي كتبه ويلسون بخـط يد نائب الرئيس تشينـي نفسه، وليس أي شخص آخر.

لكـن ما سبّـبَ الانفجار الذي أحدثتـه مقالة نوفاك لم يكن الاتهـام باحتمال محاباة الأقـارب؛ بـل لأن اسم فالـيري بليم قد ظهر للمـرة الأولى في الصحافـة وبجانبه عبارة «عميلـة الوكالـة». لقد ساهم كشـف نوفاك عن موقع بليم بشكل غـير مقصود في تحويل اللغط الدائر حول قضية النيجر إلى فضيحة شاملة.

يعتـبر الكشف المتعمد لهوية العميلـة السرية في وكالة المخابرات المركزية (وهي بليم، بالرغـم من أن لغطـاً حصل فيما بعد، حول هذه النقطة في الصحافة) لشخص يعمل في الصحافة مثلاً، ولا صلاحية لديه لمعرفته، بمنزلة جنحة. من الواضح أن نوفاك لم يقدر خطـورة الإعـلان عن هوية بليم. بعد مضـي عدة أشهر على هذا الإعـلان، عندما بدأت وزارة العـدل التحقيـق في هذا التسريـب، كتب نوفاك أن الناطق باسـم وكالة المخابرات

المركزية بيل هارلو طلب أن لا يستخدم اسم بليم في العمود الصحفي لنوفاك لأنه وبينما «ربما لن يطلب منها أبداً القيام بمهمة خارجية مجدداً...فإن الإفصاح عن هويتها وارتباطها بالوكالة قد يتسبب في مشكلات لها لو قررت السفر إلى الخارج». وقد أثار هذا الطلب دهشة نوفاك باعتباره حجةً غير مقنعةٍ لحجب معلومات ذات صلة عن الشعب. دافع نوفاك عن ما قام به عبر التأكيد على أن هارلو لم يشر إلى أن بليم «أو أي شخص آخر سيكون عرضة للخطر»، وأنه علم باسم بليم (وليس بهويتها السرية) من دخول اسم زوجها إلى المرجع الشهير Who's Who in America.

ولكن من أين حصل نوفاك على المعلومات حول دور بليم في وكالة المخابرات المركزية في المقام الأول؟ قد تمر سنوات قبل أن يرى الجواب النور. ففي عموده الصحفي، عزا نوفاك ذلك إلى «اثنين من كبار المسؤولين في الإدارة».

كانت تلك إشارة تردد صداها في رواية نقلها مات كوبر في مجلة تايم، ونشرت بعد ثلاثة أيام من نشرها في العمود الصحفي لنوفاك في السابع عشر من شهر تموز، يوليو، سنة 2003. كتب كوبر أن «بعض المسؤولين الحكوميين» تحدثوا لمجلة تايم عن «زوجة ويلسون، فاليري بليم»، وتساءل عن دوافع الإدارة حول نشر قصة فاليري بليم: «هل أعلنت إدارة بوش الحرب على سفير سابق قام بمهمة تقصي حقائق للتأكد من اهتمام العراق باليورانيوم الإفريقي؟ ربما». كما استشهد كوبر بجو ويلسون الذي لم يكن لديه أدنى شك حول ما تقوم به الإدارة. أكد ويلسون أن «هذه وظيفة قذرة».

سواء كان ذلك إعلان حرب، أو وظيفة قذرة، أو هجوم علاقات عامة، تناثر أدراج الرياح، فقد اعتبرت وكالة المخابرات المركزية تسريب اسم فاليري بليم مسألة خطيرة. بعد مضي أسبوعين، وبحلول نهاية شهر تموز، يوليو، ذكرت وكالة المخابرات المركزية في رسالة لم يفصح عن مضمونها موجهة إلى القسم الجنائي في وزارة العدل «أن خرقاً محتملاً للقانون الجنائي يتعلق بالإفصاح غير المسموح به عن معلومات سرية قد حصل»، كما أعلمت وزارة العدل أن مكتب الأمن التابع لها، أي الوكالة، يحقق في القضية.

وفي الوقت الذي كانت إدارة بوش تتصدى للهجمات بشأن أساليبها الهجومية (المزاعم بشأن قضية النيجر، وحقن الرأي العام بمعلومات استخباراتية قبل بداية الحرب) فإنه يتعين عليها قريباً الإجابة عن أسئلة حول أساليبها الدفاعية - تسريب هوية فاليري بليم في مسعى منها لصد هجوم زوجها على هذه الإدارة.

في خضم كل هذا - في الخامس عشر من شهر تموز، يوليو، بعد يوم فقط على نشر عمود نوفاك الصحفي - ومن دون أن يكون لدي اطلاع على التسريبات، أو أن أكون متورطاً في الجهود المبذولة للنيل من مصداقية ويلسون، تسلمت من آري فليشر منصب السكرتير الصحفي للبيت الأبيض. ولو كنت أتوقع شهر عسل في هذا المنصب، لعلمت بسرعة أن الأمر سوف يكون عكس ذلك.

في اليوم الثاني لاستلامي منصب السكرتير الصحفي، عقد المستشار الرئاسي دان بارتليت، وهو زميلي التكساسي، المسؤول عن مجمل اتصالات البيت الأبيض اجتماع تخطيط مهم للعاملين تحت إمرته. كان الهدف من ذلك الاجتماع التأكد من أن فريق الاتصالات في البيت الأبيض يركز بشكل كامل على الحاجة إلى «كسب كل دائرة إخبارية»، والتأكد من أننا نساهم في «الخطة الإستراتيجية الأشمل» خلال الجهد المبذول في حملة إعادة الانتخاب القادمة. ولقد صدر هذا التوجيه بشكل مباشر عن الاجتماع حول الإستراتيجية المعقود في البيت الأبيض الذي كان قد عقد في تلك المرحلة.

كانت اللغط الدائر حول الكلمات الست عشرة ما يزال يلبد أجواءنا أثناء عقد هذا الاجتماع. وقد اعترفنا لتوّنا أن المزاعم حول قضية اليورانيوم ربما كانت باطلة، ووجدنا أنفسنا محشورين في محاولتنا الدفاع عن ما لا يمكن الدفاع عنه - وهو موقع ليس مناسباً للرئيس أو لطاقمه في البيت الأبيض الانحشار فيه.

كنا بحاجة إلى إعادة تركيز النقاش على الإطار الاستراتيجي الأعم - الصورة الكبيرة للأمن القومي الذي كان الرئيس يركز عليه من دون هوادة أثناء حملة إعادة الانتخاب، وذلك ضد خصمه السيناتور جون كيري.

حدد بارتليت في ذلك الاجتماع الخطوط العريضة للرسالة التي ستقودنا إلى الفوز: إن الواجب الأهم الذي يشغل بال الرئيس في عالم ما بعد الحادي عشر من أيلول، هو حماية الشعب الأمريكي من الإرهابيين والأنظمة المارقة. الطريقة التي نضمن فيها الفوز في حربنا ضد الإرهاب هي أن نبقى في حال الهجوم، وأن نضع حداً لهذه التهديدات عبر مواجهتها. ويعتبر الشرق الأوسط الأكثر سلاماً والأكثر تحرراً والأكثر استقراراً، مفتاحاً لأمن بلدنا وأمانه. تتركز مهمتنا في إبقاء تركيزنا منصباً على أمننا القومي، وتحديداً الحرب على الإرهاب؛ هذه الحرب سوف تكون الموضوع المركزي في حملة إعادة انتخاب الرئيس.

في هذا السياق، لم تعد الحرب في العراق مسوغة وحسب، بل ضرورة. كان نظام صدام حسين يشكل تهديداً قبل الغزو، سواء كان يمتلك أسلحة دمار شامل، أم لا. نحن الآن بصدد استئصال القاعدة، وكنا نخوض حرباً شاملة ضد الإرهاب في كل من أفغانستان والعراق.

خلال الأسابيع العشرة اللاحقة، كان يتم استغلال كل فرصة مهمة في برنامج الرئيس للتركيز على هذه الرسالة. كان الجمهوريون في الكونغرس، والحلفاء في وسائل الإعلام مثل كتاب الأعمدة الصحفية المحافظين ومقدمي البرامج الحوارية الإذاعية يُضَمّون إلى هذه الجهود، ويزودون بأغلفة تتضمن موضوعات الحديث التي يتوجب طرحها بهدف مساعدتهم على إيصال هذه الرسالة كلما أمكنهم ذلك. كان يتم تزويد أفراد الطاقم بموضوعات الحديث اليومية، وكانت الردود السريعة على دوائر الأخبار نفسها، وضد أي هجوم أو أي مواقف صحفية سلبية تشكل أولوية قصوى – وهو جهد قاده بارتليت أثناء حملة سنة 2000.

كانت هذه الحملة قد حزمت أمرها لجهة أخذ زمام المبادرة وشن هجوم إعلامي بغية وضع كل الخيوط في أيدينا واستثمارها لصالحنا. لكن اللغط الدائر حول الكلمات الست عشرة يرفض أن يختفي. كيف أمكن للزعم الخاطئ حول مسألة اليورانيوم في إفريقيا أن يجد طريقه إلى خطاب الرئيس حول حال الاتحاد؟ إذا كانت وكالة المخابرات المركزية

بإمـرة تينيـت هي المسؤولـة، ألا يجب أن يتحمـل تينيت بعض المسؤوليـة؟ وإذا لم يتحمل المسؤوليـة، فمـن سيتحملها إذاً؟ كانت هـذه الأسئلة ترد في معظم الحـوارات واللقاءات الصحفيـة. وبمرور الأيام، أصبـح من الواضح بما لا يدع مجالاً للشك أن التعامل الجدي مع هذه الأسئلة يجب أن يكون حاسماً - وكلما كان ذلك أسرع، كان أفضل.

في نهايـة المطـاف، أخـذ كل من آنـدي كارد، رئيـس أركان البيـت الأبيض، ودان بارتليـت، المستشـار الرئاسي علـى عاتقيهما معالجة هذه الأزمة - تـولى آندي مهمة توجيـه الجميع في البيـت الأبيض لتزويده بكل ما تسعفهم الذاكـرة وبالوثائق المتعلقة بأصل المزاعم بشأن قضية اليورانيوم والكيفية التي تمت فيها معالجتها؛ أما دان فقد تولى مهمة تنظيم المعلومات وتهيئة عرض واضح ومباشر يظهر الكيفية التي وقع فيها هذا الخطأ الفظيع.

بالنسبة لأشخاص مكلفين بمعالجة مسألة الاتصالات لصالح منظمة معقدة مثل البيت الأبيض مثل دان ومثلي، فإن التوتر بيننا وبين «زبائننا» في وسائل الإعلام الإخبارية يشكل جزءاً رئيساً من توصيف الوظيفة التي يقوم بها كل منا. وعندما يكون المسؤولون بدءاً من الرئيـس نفسه، يشعـرون بالأمان في الأدوار التي يؤدونها، وملتزمـين بالشفافية الكاملة، فـإن هذا التوتـر سيزول تلقائياً. فنحن مسموح لنا تشاطـر المعلومات بشيء من الحرية، كمـا أننا قادرون عادة على التغلب على المقاومة لمبدأ الشفافية التي يقوم بها عادة أولئك الذيـن يميلون نحو الحذر الشديـد، ويفضلون السرية (على الأخـص، المحامون، وبعض كبـار المستشاريـن). ولكن عندما يختـار قادتنا نبذ الشفافية، ويقيمـون حواجز في وجه الكشـف الكامل عن الحقيقة، فإن التوتر سيزداد. وهو ما يجعل من مهمتنا شيئاً لا يطاق إلى حد كبير. الأهم من ذلك، يمكن لهذا أن يقلل في نهاية المطاف من شأن الإدارة، ومن الرئيس نفسه.

في أغلـب المنظمات، بمـا فيها إدارة بوش، هناك أشخاص يميلون نحو الاتجاهين في مثل هذه المسائل - فهناك من يفضل الكشف عن الحقائق، وهناك من يرفض هذا المبدأ. كما يعتبر فن إدارة لعبة شد الحبال بين الجهتين المختلفتين جزءاً من الوظيفة التي نقوم

بها. وفي عالم اليوم الذي تتحرك فيه دائرة الأخبار على مدى أربع وعشرين ساعة يومياً، فإن ضغط الوقت يزيد من تعقيد هذا التحدي كثيراً.

السرعة مرغوبة دائماً عندما تدلي بمعلومات، لكن الحصول على الحقائق كلها يمكن أن يستغرق بعض الوقت. عندما تكون المعلومات ناقصة، فإن وسائل الإعلام ستملأ هذا الفراغ بلغة إنشائية حزبية مثيرة للعواطف تؤجج الصراع واللغط والسلبية، وفي أغلب الأحيان – سواء عن قصد أو من دون قصد – تجمح نحو استنتاجات تبسيطية يغلب عليه منطق الأبيض مقابل الأسود الذي يحدد مسار القصة قبل الكشف عن الحقيقة بكاملها.

القصة وراء اللغط الذي أثارته الكلمات الست عشرة كانت معقدة؛ ونظراً لأننا في البيت الأبيض، كنا بطيئين قليلاً في الحصول على المعلومات بشكل جماعي وتشاطرها فيما بيننا، فقد استمرت هذه القصة في الاشتعال على امتداد الأسبوع الثاني الذي مضى على استلامي منصب السكرتير الصحفي. في الثامن عشر من شهر تموز، يوليو، وبعد يومين من الاجتماع الذي عقدناه حول الاتصالات، قام بارتليت بتزويد الصحفيين ببعض الحقائق حول خلفية هذا اللغط. وتزامن ذلك مع نزع غطاء السرية بشكل رسمي والإعلان عنه عبر قنوات وكالة المخابرات المركزية عن جزء من تقويم الاستخبارات الوطنية الصادر في شهر تشرين الأول، أكتوبر بما في ذلك فقرات تتعلق بمحاولات العراق الحصول على اليورانيوم من إفريقيا. إلا أن تحقيقنا الداخلي لم يكن جاهزاً في ذلك الوقت، ولذلك فإن الحقائق القليلة التي أعلن عنها دان، لم تُرْضِ وسائل الإعلام.

على امتداد الأيام اللاحقة تم الكشف عن وثائق أكثر، وبدأت القصة الكاملة حول المزاعم بشأن اليورانيوم تتوضح بالتدريج. ففي الحادي والعشرين من شهر تموز، يوليو، تم عقد اجتماع ليلي متأخر بين مجموعة مختارة من كبار المستشارين في مكتب آندي كارد لمناقشة إستراتيجية الاتصالات التي علينا إتباعها لمعالجة هذا الموضوع. وقد حضر الاجتماع كل من كارد وبارتليت وكوندي رايس ونائبها ستيف هادلي ومستشار البيت الأبيض ألبيرتو غونزاليز وسكرتيرة أركان البيت الأبيض هارييت ميرز وأنا.

كان أحد موضوعات المناقشة تفصيلاً صغيراً تحول إلى قصة نقلها ريتشارد ستيفينسون، مراسل صحيفة نيويورك تايمز في البيت الأبيض قبل ثمانية أيام. استناداً إلى تلك القصة، تم إسقاط جزئية الزعم بأن «صدام حسين حاول شراء 550 طناً من اليورانيوم الخام من النيجر» من الخطاب الذي ألقاه الرئيس في سينسيناتي وذلك في السابع من شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2002. وذكرت القصة أن مدير وكالة المخابرات المركزية، جورج تينيت، حذر شخصياً ستيف هادلي نائب مستشارة الأمن القومي أن هذا الزعم لا يمكن إثباته بأي دليل استخباراتي مادي. إذا كان هذا صحيحاً، فإنه يقودنا إلى السؤال الآتي: كيف لزعم اعتبر مهلهلاً تم إسقاطه من خطاب في سينسيناتي أن يتبوأ موقعاً في أهم رسالة يوجهها الرئيس إلى الشعب الأمريكي، ألا وهي خطابه عن حال الاتحاد؟

كثيرون ممن ليسوا داخل الدائرة، لا يعرفون شيئاً عن ستيف هادلي، أما بالنسبة لنا، نحن العاملين معه، نعرف أنه شخص شريف. وكان سلوكه في تلك الليلة تأكيداً على تلك الحقيقة.

أكد هادلي على حصول ذلك الحديث بينه وبين تينيت. لكنه، وبعد ثلاثة أشهر، عندما كانت اللمسات الأخيرة توضع على الخطاب حول حال الاتحاد، كان قد نسي ما يتعلق بهذا الموضوع. وعندما عاد بذاكرته إلى الوراء، اعترف بأنه كان عليه أن يتذكر ذلك الحديث مع تينيت وتحذيراته حول المزاعم بشأن قضية النيجر. قال ستيف: «أنا مسؤول عن حجب هذه الحقائق، وفي هذه الحال، أعترف بأنني أفسدت كل شيء. أظن أن الحل الوحيد هو أن أقدم استقالتي».

كان هادلي في غاية الانزعاج وهو يرى أن تينيت قد تم تقديمه ككبش فداء، طالما أنه كان يعرف أن الخطأ خطؤه هو، ولا أحد سواه. كانت المشاجرات والاتهامات المتبادلة داخل أروقة الإدارة بين مختلف الوكالات والهيئات من بين الأشياء القليلة التي كانت تزعج بشكل جلي مسلك هادلي الهادئ، والوقور، والمتزن. وكان طرحه لفكرة تقديم استقالته

محاولــة إيثاريــة منه لرفع الحيف عن اسم شخص شعر بأنــه تلقى كماً غير منصف من اللوم، وتحمل المسؤولية عن خطأ غير مقصود ظهرت نتائجه أمام العالم برمته.

وبينمــا كنــت جالساً أتأمل ما قاله هــادلي، فقد تم رفض عرضــه الاستقالة كلياً من كل الحاضريــن. كان هــادلي أحد أكــثر أعضاء الفريق موالاة لبوش، وأكثر المستشارين أهميــة، وكان خطــؤه أبعد مــا يكون عن الإطــار الجرمي. لكننا مع ذلــك، اتفقنا على أن مقاربــة قوامها المصارحة، والاستقامة، والأمانة هي في غاية الأهمية في الوقت الحاضر. وكان كل مــن بارتليت وهــادلي الأكثر اطلاعاً وبشكل مباشر مــن أي عضو آخر في البيت الأبيض علــى عملية إعداد الخطاب والحقائق المتعلقة بهــذه القضية، أفضل الحاضرين الذين يمكن لهما إطلاع العالم بأسره على ما حصل، ولماذا حصل ذلك. وبإمكان هادلي فقــط توضيح هذا السجل المتعلق بتحديد مسؤولية إقحــام هذه الكلمات الست عشرة في خطاب الرئيس.

في اليــوم الثاني، أطلع كل من بارتليت وهــادلي الصحفيين في قاعة روزفلت في البيت الأبيــض على الكيفية التــي سمح فيها للكلمات الست عشــرة بالظهور في خطاب الرئيس حــول حال الاتحــاد. كان بارتليــت بصفته مديراً للاتصــالات في البيــت الأبيض مشرفاً علــى عملية كتابة الخطابات. وبصفته الشخص رقم اثنين في مجلس الأمن القومي، كان هــادلي المسؤول عن الموافقة على محتوى الحقائق المذكورة في الخطابات في مجال عمله. وبعــد أن اعــترف بأن تينيت طلب إليــه سابقاً عدم تضمين المزاعم حــول صفقة النيجر، فقــد أوضح هادلي للصحفيين المجتمعــين أنه «أخفق» في تحمــل مسؤولياته بشأن تدقيق الخطــاب: «الحقيقــة هي أنه بالإشــارة إلى مذكرة وكالة المخابــرات المركزية المؤرخة في يومي الخامس والسادس من شهر تشرين الأول، أكتوبر، وإلى المكالمة الهاتفية التي جرت بيني وبين تينيت، مدير وكالة المخابرات المركزية ، أقر بأنه كان عليّ أن أتذكر عند حلول وقت إلقاء الخطاب حول حال الاتحاد، أن لغطاً كان يدور حول قضية اليورانيوم».

استمر اللقاء الصحفي الذي عقده بارتليت وهادلي لمدة ساعة وثلاث وعشرين دقيقة. أتصــور أن ستيــف اعتقد أنه كان أطول من ذلك. لكــن ذلك اللقاء حقق غرضنا في وضع الكلمات الست عشرة وراء ظهورنا.

مـع ذلـك، لم تكن هذه سوى واحـدة من المعارك التـي واجهناها في البيـت الأبيض. فالسـؤال الأشمـل حول التقاريـر الاستخباراتية في المرحلة التـي سبقت الحرب كانت ما تـزال تحوم فوق رؤوسنا. لمـاذا ارتكبت إدارة بوش، ومعها العديـد من الخبراء الواسعي الإطـلاع مـن كثير من دول العـالم هذا الخطأ الفـادح حول حقيقة وضـع أسلحة الدمار الشامـل لصدام حسين وبرنامـج أسلحة الدمار الشامل الذي يتبناه؟ أكثر من ذلك، كان الصـراع الجديـد قد بدأ يتصاعد حـول التسريـب الواضح لهوية فالـيري بليم من قبل مسؤولين في الإدارة بهدف تقويض سمعة جو ويلسون.

في السادس عشر مـن شهر أيلول، سبتمبر، أعلمت وكالـة المخابرات المركزية وزارة العـدل بأمر استكمال تحقيقاتها بشأن الإفصاح عـن اسم فاليري بليم ووضعها السري، وطلبـت أن يقوم مكتب التحقيقات الفيدرالي «بالمبادرة إلى إجراء تحقيق حول الموضوع». نصحـت وزارة العـدل وكالة المخابـرات المركزيـة في التاسع والعشرين مـن شهر أيلول، سبتمـبر، سنـة 2003 أن يقوم قسـم مكافحة التجسس فيها بدعم فكـرة طلب التحقيق. وكان المضمـون الواضح هو وجود أسبـاب وجيهة للاعتقاد أن جريمة ما، قد ارتكبت عبر تسريب اسم بليم. وكان سيتم إعلام البيت الأبيض حول قرار وزارة العدل في وقت لاحق من ذلك اليوم.

الفضيحـة المصنوعـة خصيصاً علـى قياس واشنطـن اكتمل نموهـا. وقد تمت هذه الفضيحـة علـى وقع حملة إعـادة انتخاب الرئيـس. زادت الروح الحزبيـة من حدة هذا اللغـط، حتى عبر إطلاق تسمية على هـذه القصة. فنحن في البيت الأبيض أطلقنا عليها ببساطـة وصف: «التحقيق حول التسريب»، بينمـا أطلق عليها منتقدونا وصف «بليمغيت» في محاولة منهم لجعلها تبدو شريرة بالدرجة نفسها لأكثر الفضائح شهرة على الإطلاق. ربما كان أكثر الأسئلة حول التسريب سخونة يدور حول ما إذا كان كارل روف – وهو أكثر مستشاري بوش إثارة للجدل – متورطاً في هذه القضية.

أول سؤال تم توجيهه إليّ كان بالتحديد حول ما إذا كان روف متورطاً، وذلك في اللقاء الصحفي الذي جرى في السادس عشر من أيلول، سبتمبر سنة 2003. راسل مخيبر رئيس

تحريـر صحيفة الـرأي: Corporate Crime reporter، وهو أحـد مساعدي رالف نادر، وأحـد منتقدي البيت الأبيض الليبراليين، طرح سؤالاً محدداً. أتى هذا السؤال من حيث لا أشعـر، لكن ذلك كان طبيعياً كونه أتى من مخبر، الفظ، والذي لا يهتم عادة بالأخبار اليوميـة. كان يهتـم بالأخبار المفخخة التي تساعده بـكل بساطة في التسبب بأكبر كم من الأذى لإدارة لا ينظر إليها باحترام.

قـال مخبر: «بالنسبة لموضـوع نوفاك – ويلسون، قال نوفـاك في وقت سابق من هذه السنـة – واقتبـس مما قـال – إن مصادر حكوميـة مجهولة أبلغته أن زوجـة ويلسون هي عميلة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية. الآن، من الواضح أن حرق غطاء عميل لوكالة المخابـرات المركزية هو جريمة فيدرالية. يعتقد ويلسـون أن الشخص الذي فعل ذلك هو كارل روف. نسـب إليه قوله في كلمة ألقاها الشهر الماضي [في المنتدى العام الذي عقد في الثـاني عشر من شهر آب، أغسطس، في إحدى ضواحـي سياتل] «في المحصلة، من المهم جداً بالنسبة إلي التأكد فيما إذا كان باستطاعتنا رؤية كارل روف يساق مكبل اليدين إلى خارج البيت الأبيض». هل كان كارل روف هو من أخبر...»

لم أكـن مستعداً لتلقي مثل هذا السؤال بمعنى أنني لم أكن قد تحدثت إلى روف حول هـذا الموضـوع، بعد؛ لكن السـؤال صيغ بطريقة منفـرة عاطفياً عبر إشارتـه لروف أنه «حرق غطاء عميل لوكالة المخابرات المركزية» عن سابق تصور وتصميم، وهذه الطريقة جعلتني أقاطع مخبر بثقة: «لم أسمع هذا. هذا الكلام هو منتهى السخف». تابع مخبر متسائـلاً فيمـا إذا كان روف قـد أفصـح عن اسم بليـم لنوفاك؛ ومن جديـد قلت: «إن هـذا القـول سخيف تماماً». وكان هـذا هو الموقف الذي تبنيتـه في الوقت الذي استمرت الفضيحة بالتصاعد.

رأيـت روف بعـد اللقاء الصحفي في قاعـة روزفلت بمدة وجيزة وتحدثـت إليه بهدوء قـرب البـاب المـؤدي إلى الرواق الفاصـل بين قاعة روزفلـت والمنطقة التـي يتواجد فيها مكتبي. أردت التأكد أنني لم أقل ما لا يجب أن يقال. كان روف يعرف نوفاك معرفة جيدة منـذ سنوات وكان يتحدث إليه بين الحين والآخـر، وبالطبع كان معروفاً بآرائه السياسية

الصارمـة. لكنه كان يعرف بالتأكيد أن تسريب معلومـات سرية تتعلق بالأمن القومي هو تجاوز لكل الخطوط.

قلـت لـروف: «سئلت في قاعة اللقاءات الصحفية اليوم عـن التعليق الذي أدلى به جو ويلسـون، والذي ذكـر فيه أنه يرغب برؤيتك تقاد خارج البيت الأبيض مكبل اليدين. فقد سألني أحد الصحفيين فيما إذا كنت أنت أحد مصادر المعلومات لنوفاك، أو أنك أنت من «حـرق الغطاء» من على زوجة ويلسون. لقد قلـتُ إن هذا في منتهى السخف. أنت لم تكن أحد مصادر المعلومات لنوفاك، أليس كذلك؟».

«بالضبط».

قلت: «أردت فقط أن أتأكد».

قال روف: «أنت محق».

كانـت المرة الثانية التي أدقـق فيها مع روف يوم السبت الواقع في السابع والعشرين مـن شهـر أيلول، سبتمـبر، 2003. كان مايـك آلان، مراسل صحيفـة واشنطن بوست في البيـت الأبيض الممتلـئ بالحيويـة، في الثلاثينـات من عمـره، والـذي غطى حملة الانتخابات الرئاسية سنة 2000، يعمل على جزئية تتعلق بالتحقيق في تسريب المعلومات بالاشـتراك مع الصحفية المخضرمة دانا بريست التي كانت تقوم بتغطية قضايا تتعلق بالاستخبارات لصالح صحيفة البوست.

استنـاداً إلى مايك، فقد أخبرهما أحد كبار المسؤولين أن اثنين من كبار المسؤولين في البيت الأبيض سبق لهما أن تحدثا إلى ستة من الصحفيين على الأقل حول زوجة ويلسون. لم يعرف مايك أسماء جميع المساعدين الذين زُعِمَ أنهم متورطون في فضيحة التسريب، لكنـه بالاشـتراك مع بريست ارتأيـا أن مصدرهما لم تكن تعـوزه المصداقية، ولهذا فقد قررا الاستمرار في تقصي هذه القصة.

كنت في كامب ديفيد في ذلك اليوم، حيث كان الرئيس يجتمع مع الرئيس بوتين ويعتزم عقـد لقـاء صحفي يلقي فيـه كل منهما بياناً ثم يتلقيـان عدداً محدوداً مـن الأسئلة من

الصحفيين المرافقين لهما. اتصل روف بمساعدتي التي أثق بها كثيراً، كلير بوكان ليبلغها أنه تلقى رسالة بالبريد الإلكتروني من مايك يسأله فيه عن القصة.

كان فحـوى القصة التي نشرتها البوست واضحاً تمامـاً: أن البيت الأبيض كشف عن هوية بليم للنيل من مصداقية جو ويلسون، أو لمعاقبته. كانت القصة تضع تسريب هويتها علـى أعتاب البيت الأبيض محملة إيـاه مسؤولية التسريب. قبل ذلك، كانت القصة تركز فقـط على «اثنين من كبار المسؤولين في الإدارة» حسـب رواية نوفاك. لكن البوست تنشر الآن أن اثنـين مـن كبار المساعديـن في البيت الأبيض تحديداً هما مـن كشف عن هويتها للعديد من الصحفيين، ملمحة بذلك إلى إمكان وجود جهد منظم من قبل البيت الأبيض لكشف الدور الذي قامت به بليم، وعلاقتها برحلة زوجها إلى النيجر.

تحدثـت كلـير إلى روف قبل عودتي إلى البيت الأبيضـ في حافلات الموظفين. وصلت إلى مكتبي بعد الواحدة من بعد الظهر بقليل، وبعد برهة وجيزة، تلقيت منها تقريراً عن ما جرى.

أعلمتني أن روف قال لها من تلقاء نفسه إن نوفاك اتصل به بشأن بليم. وهو لم يؤكد أن لبليم علاقة مع وكالة المخابرات المركزية لأنه لم يكن يعرف شيئاً عن هذا الموضوع.

أجبت بشيء من الدهشة: «كارل تحدث إلى نوفاك؟»

قالت كلير إنه فعل ذلك. أصبت بصدمة لأن روف لم يذكر لي شيئاً عن هذا الاتصال عندما تحدثنا إلى بعضنا بعضاً في المرة الأولى. ناقشت مع كلير كيف أن هذا يتفق مع ما قلتـه سابقاً في قاعة اللقاءات الصحفية يوم السادس عشر من شهر أيلول، سبتمبر. فقد كان ما ذكرته حينها يتطابق مع ما قاله كارل لكلير الآن: فهو لم يكن أحد مصادر نوفاك لأنه لم يكن باستطاعته تأكيد ما لم يكن يعرفه.

شعـرت أنه كان على روف أن يكشف لي عن هذا الحديث مع نوفاك سابقاً؛ لذا قررت الاتصـال بـه. كرر علـى مسامعي ما كان قد أخبر كلير به في وقـت سابق من ذلك اليوم: «لقد قال [أي نوفاك] إنه سمع أن زوجة ويلسون عملت مع وكالة المخابرات المركزية. أجبته

بأنني لا أستطيع تأكيد هذا الخبر لأنني لم أكن أعرف». بعدها، وحيث كنت أعلم إلى أين سيتجـه مسار القصة في المقال الذي سينشر في صحيفة البوست، سألت كارل سؤالاً غير قابـل للبس أو التأويل: «هل كانت لك علاقة بهذا الموضـوع بأي شكل من الأشكال؟» كنت أشير بوضوح إلى مسألة تسريب هوية فاليري بليم – وهي معلومات كان يعتقد أنها سرية – إلى أي صحفي.

أجاب كارل بشكل حاسم، «كلا؛ اسمع، لم أكن أعرف شيئاً عن زوجته بالمرة».

لم يكـن هناك أي ذكـر حينها لمحادثة هاتفية أجراها كارل في الحادي عشر من شهر تمـوز، يوليـو، مع أحدث مراسلي مجلة تايم في البيت الأبيض آنذاك، واسمه مات كوبر، هـذه المحادثـة بقيت طي الكتمـان باعتبارها «سـراً استثنائياً مضاعفـاً» (وهذه العبارة الذكيـة هي لكوبـر وليست لي). لمدة سنتـين إضافيتين تقريباً. حينهـا فقط، وعندما تم إعلان الأمر على الملأ، وأبلغت به أنا أيضاً، علمت أن روف كشف عن هوية بليم إلى كوبر أثناء تلك المحادثة.

أعطتني عبارة «كلا» غير القابلة للتأويل التي قالها لي روف التأكيد الذي كنت أحتاجه للدفاع عن زميل عضو في فريق بوش، وزميل تكساسي عرفته منذ أكثر من عشر سنوات، كان من دون شك، هدفاً رئيساً لأكثر منتقدينا الحزبيين شراسة.

بحلول صباح يوم الاثنين الواقع في التاسع والعشرين من شهر أيلول، سبتمبر، كان جو ويلسون ضيفاً على برنامج 'صباح الخير يا أمريكة' في محطة ABC، وفيه تراجع ويلسون عـن تأكيداته السابقة بأن روف كان مسـؤولاً عن تسريب هوية زوجته. إلا أن ويلسون أكد أيضاً خلال تلك المقابلة أنه يعتقد أن روف «في الحد الأدنى، تغاضى عن هذا التسريب».

دققت مع روف في ذلك اليوم كي أؤكد أنه لم يسرب اسم بليم، أو يتغاضى عن تسريب اسمهـا. أكد لي أن ذلك صحيح. وكان ذلك آخر مرة أتحدث فيها مع كارل، أو أسمع منه عن أي شيء يتعلق بموضوع التسريب.

عندما كنت أسير باتجاه المكتب البيضاوي صباح يوم التاسع والعشرين من شهر أيلول، سبتمبر، كان يمكن أن يكون كأي يوم عادي آخر في البيت الأبيض.

كما كنت أفعل غالباً، قابلت الرئيس في الصباح قبل اللقاء مع الصحفيين في ذلك اليوم. كانت مقابلتي للرئيس مناسبة لأطلع على أفكاره حول الكيفية التي سأرد بها على واحد من الموضوعات المحددة، ولأتأكد من أنني أطلعه بشكل كامل على ما يدور في خلد الصحفيين، أو فقط لأتأكد من أن أسلوبي حيال معالجة أي موضوع يتوافق مع رؤيته. كانت الفرصة سانحة للقاء به في المكتب البيضاوي بعد الساعة السابعة صباحاً بقليل، وقبل الاجتماع اليومي مع كبار المسؤولين الساعة السابعة والنصف. في الأوقات الأخرى عادة ما كانت هذه اللقاءات تتم بعد أن يكون قد استمع إلى العرض من المخابرات ومكتب التحقيقات الفيدرالي، أو عندما يكون في طريقه إلى خارج المكتب البيضاوي متوجهاً إلى غرفة المؤتمرات من أجل القيام بمكالمة خاصة، أو من أجل اجتماع مع مجلس الأمن القومي.

لكن هذا اليوم ليس كبقية الأيام في البيت الأبيض. فقد كانت سحابة الفضيحة الداكنة ترمي بظلالها علينا في صباح هذا اليوم المتأخر من شهر أيلول.

ألقيت التحية وأنا ألج إلى المكتب البيضاوي، متخطياً الأرائك عبر الختم الرئاسي الأزرق في وسط السجادة ذات اللون البيج الفاتح: «صباح الخير سيدي الرئيس». كان مكتبه متوضعاً أمام ثلاث نوافذ طولية تتدلى منها ستائر من الجوخ الطويل الذهبي اللون يمكن لها أن تحجب طلقات الرصاص إلا أنها لا تحجب نور الشمس الذي يملأ المكتب. كان المكتب الأنيق مصنوعاً من أخشاب انتزعت من السفينة البريطانية HMS Resolute وهي سفينة استكشافية للأبحاث في المناطق القطبية انتشلها يوماً أحد صيادي الحيتان الأمريكان. وقد استخدم هذا المكتب كل قادة الجيش تقريباً لأن البريطانيين، وكلفتهِ تقديرٍ من قبلهم، قدموه للرئيس روذرفورد هيس. كان آندي كارد يقف إلى يسار الرئيس.

قال الرئيس بأسلوب لطيف: «مرحباً يا سكوت. ماذا في جعبة الصحافة هذا اليوم؟».

قلت، وأنا أعرف أن سؤاله كان شكلياً كونه مثلنا جميعاً يعرف جيداً أن ما سأقوله هو موضوع الساعة: «التقارير الصادرة حول التحقيق الذي قامت به وزارة العدل بشأن تسريب اسم فاليري بليم . أريد التحدث إليك بشأن هذا الموضوع قبل الاشتباك مع الصحفيين».

قال الرئيس بتلقائية: «ليس كارل من فعلها»، وكان يعني بهذا كبير مستشاريه، وكبير مخططيه الاستراتيجيين كارل روف. كلمة «فعلها» كانت تعني بوضوح الكشف عن هوية بليم للصحفيين. كان ما يزال يمسك بذراعي الكرسي الذي يجلس عليه وظهره إلى الوراء خلف مكتبه. كان يبدو في مزاج جيد.

بدأت القول، وأنا غير مدرك أن الرئيس ما زال لديه ما يريد قوله: «أعرف ...».

تابع الرئيس قائلاً: «أخبرني انه لم يفعلها»، قاطعاً عليّ جملتي من منتصفها.

كان قد مضى شهران على نشر نوفاك لمقالته معلناً عن اسم بليم، ومستشهداً «باثنين من كبار المسؤولين» كمصدر للتسريب. كان روف قد أنكر لتوه أمامي أن يكون هو من قام بعملية تسريب هوية بليم، وعلمت الآن أنه أبلغ الرئيس أنه غير متورط في ذلك.

حدق الرئيس بعد ذلك في آندي الذي رفع ذراعيه فوق مستوى خصره وكان يشير إلى الرئيس وهو يخفضهما نحو الأسفل أن يهدأ ويتوقف عن الكلام بشأن ما سيصبح بسرعة موضوعاً حساساً.

قال الرئيس وهو ينظر إلى آندي بشيء من الضيق في صوته: «ما الأمر؟ هذا ما أخبرني به كارل».

قال آندي: «أعلم ذلك؛ لكن ينبغي أن لا تتحدث إلى أي شخص حول هذا الموضوع، ولا حتى معي». كان آندي دائماً في غاية الحذر. في ذلك الصباح نشرت صحيفة واشنطن بوست خبراً مفاده أن وزارة العدل فتحت تحقيقاً جنائياً بشأن الكشف عن هوية بليم.

شعر آندي أن أول، وأهم مسؤولياته بصفته رئيساً لأركان البيت الأبيض، حماية الرئيس، ووقته، وسمعته، وإرثه. لقد خدم في إدارتين قبل هذه الإدارة، وكان يعرف كيف

يمكن للفضائح أن تحطم أصحابها في واشنطن. كان آندي يرى أن حماية الرئيس تتطلب أحياناً الوقوف بينه وبين كبار المساعدين الآخرين بمن فيهم كبير الناطقين باسمه.

لكن الرئيس وأنا، كانت تربطنا علاقة فريدة من نوعها بدأت في الولاية التي نشأنا فيها وهي موطننا، تكساس. لذا، لم يأبه الرئيس بالجهد الذكي الذي حاول آندي أن يبذله كي يمنعه من أن يتحدث معي حول ما قاله كارل. ظهرت على وجهه بعض أمارات الضيق الإضافية في الوقت الذي تمتم بعبارة: «لا بأس؛ أياً يكن الأمر»، وهو ينظر إلى الأمام بعيداً عني وعن آندي. كان هذا التعبير يظهر على وجه الرئيس من حين إلى آخر عندما كان أحد أركان البيت الأبيض يحاول أن يملي عليه ما يجب عليه أن يفعله أو لا يفعله.

تابعت قائلاً، وأنا أنظر باتجاه الرئيس: «تحدثت إلى كارل أيضاً. قال لي الشيء نفسه».

سأل الرئيس: «هل تظن الصحافة أنه هو من فعلها؟»

أجبت: «سبق وأن أخبرت الصحافة أنه ليس هو من فعلها. لكنني متأكد أنهم سيسألونني عن الموضوع ذاته اليوم». ذكرت له القصة التي نشرتها صحيفة واشنطن بوست يوم الأحد، والتي أشارت فيها إلى أن اثنين من كبار المسؤولين في البيت الأبيض اتصلا على الأقل بستة من الصحفيين في واشنطن بغية الكشف عن هوية بليم وموقعها الحالي في وكالة المخابرات المركزية.

لم أشأ التطرق أكثر إلى حديث الرئيس مع كارل، وكان يعود ذلك جزئياً إلى القلق الذي كان ظاهراً حينها على آندي. لكنني افترضت عبر تعليقاته أنه سأل كارل سابقاً في ذلك الصباح فيما إذا كان واحداً من هذين المصدرين أم لا. كان الموضوع ما يزال طرياً في ذهنه، وشعرت بالثقة في دفاعي عن كارل طالما أن الرئيس نفسه قد تلقى تطمينات منه. وكان انطباعي حينها أن آندي كان على اطلاع كامل بما قاله كارل للرئيس.

حينها، نظرت إلى آندي وسألت: «هل تعلم عن أي شيء آخر يتعلق بالتحقيق؟»

أجاب آندي أنه لم يسمع بأي جديد حول الموضوع؛ وعلى حد علمه، نحن بانتظار سماع شيء من قبل وزارة العدل.

Open Knowledge

كانت تلك المناقشة في المكتب البيضاوي في ذلك الصباح - وهو اليوم الذي كنا سنُخطَرُ فيه بأن تحقيقاً بالفعل سيتم لاحقاً - لحظة كان سيتذكرها آندي وهو يدلي بشهادته أمام المدعين العامين، وكنت سأتذكرها أنا، تحت القسم، أمام هيئة كبار المحلفين الفيدراليين. حولتُ المناقشة بعدها باتجاه المقاربة التي كنت أخطط للقيام بها في حواري مع فريق الصحفيين المتجمعين في البيت الأبيض في وقت لاحق من ذلك الصباح، وفي اللقاء الصحفي بعد ظهر اليوم نفسه. فقد كان الرد الرئيس للبيت الأبيض على هذا الهياج الإعلامي المتكاثر في الجو سيكون مني. كان الرئيس مرتبطاً بمناسبتين عامتين ضمن برنامج البيت الأبيض في ذلك اليوم، لكنه لم يكن في نيته تلقي أسئلة من الصحفيين حول أي من هاتين المناسبتين. فلم يكن أحد من أركان البيت الأبيض يرى أيَّ فائدة يمكن جنيها لو قام بذلك، طالما أن الصحفيين سيركزون بشكل كامل على التحقيق في قضية التسريب.

قلت للرئيس: «أنوي القول إنك تعتقد أن أي تسريب لمعلومات سرية يجب أن يدقق فيه ويتابع إلى أقصى مدى ممكن، وأن وزارة العدل هي الجهة المناسبة لتقصي هذا الأمر. لا أخطط يا سيادة الرئيس الذهاب أبعد من ذلك».

أجاب الرئيس: «نعم، أظن أن هذا صحيح. اعتقد أنها مسألة خطيرة، وآمل أن يكتشفوا الشخص الذي فعلها».

وتوجهت نحو آندي قائلاً: «يا آندي، أنوي كذلك أن أقول إنه لم يرقَ إلى مسامعنا شيء يشير إلى تورط البيت الأبيض خارج ما قرأناه عن هذا الموضوع في الصحف، هل توافقني الرأي؟»

أجاب آندي: «لا أعرف شيئاً». وأضاف: «آخر مرة سمعت آل فيها، أكد لي أنه لم يسمع بالأمر أيضاً». كان يشير هنا إلى آل غونزاليز، مستشار البيت الأبيض، وأحد أنصار بوش القدامى من تكساس. كنا جميعاً نتحدث بلسان واحد.

تفوه الرئيس ببضع كلمات تشجيع بينما كنت أتوجه إلى خارج المكتب. كنت أعلم أن اللقاء مع الصحفيين سيكون عاصفاً. كانت هذه أول فضيحة كبرى تعصف بالبيت الأبيض

في عهد بوش، وكان جمع الصحفيين يستعد للهجوم. كان الرئيس يتحضر للبدء في حملة إعـادة انتخابه في السنة اللاحقـة، ورأى الديمقراطيون الفرصة سانحة كي يحشرونا في موقـف دفاعي، ويكيلوا ضربة موجعة لفرص الرئيس في إعادة انتخابه. كنت في قلب هذه العاصفة التي يتزايد أوارها – وكنت خط الدفاع الأول عن البيت الأبيض.

بعـد مضي شهرين على تبوئي منصـب السكرتير الصحفي في البيـت الأبيض، كنت علـى وشك الولوج إلى أول امتحان لي في قاعة اللقاءات الصحفية. كان الكثير من التوتر التقليـدي يجري بين الصحافة والسكرتير الصحفي اليوم. نصف الوقت الذي يمر أثناء اللقـاء اليومي مع الصحفيين المتواجدين في البيت الأبيض ينقضي وهم يحاولون إيجاد ثغرة ولو صغيرة في ما يقوله السكرتير الصحفي وذلك كي يسجلوا عليه أي خطأ أو تناقض يمكـن أن يقـع فيه – وهي لحظة «أمسكتُ بك متلبّسـاً». إن هذا طقس لا بد أن يمر به أي سكرتـير صحفـي، وهو أسلوب يحاول عـبره الصحفيون إحداث ثقـب في الجدار عندما يزودون بمعلومات منتقاة بعناية تتلى عليهم على الملأ.

كان لـدي تصـور جيد عما سوف أواجهـه، وهو ما وفر لي فرصة تهيئـة نفسي للقاء. العديد من زملائي في البيت الأبيض سوف يراقبون عن كثب أدائي في اللقاء الصحفي هذا اليوم، وسيكون أحد أسباب ذلك التحقق من كيفية أدائي لهذه المهمة تحت الضغط.

كان هنـاك نحو خمسة وثمانين سـؤالاً خلال الحوارات غير الرسمية مع الصحفيين صبـاح ذلـك اليوم بعيداً عـن عدسة الكامـيرا؛ سبعون من هذه الأسئلـة تمحورت حول التحقيق بشأن قضية التسريب. تحدث الصحفيون، الواحد منهم تلو الآخر وهم يطلقون سهـام أسئلتهـم، ولم يكـن ذلك يثير فيّ أي إحساس بالضيـق. أردت أن أتأكد من أنني أشعـر بالراحة وأنا أتلقى أسئلة محددة سوف تطرح علي من قبل الصحافة بما في ذلك ما ستطرحه خلال اللقاء الصحفي بعد الظهر. تركت عن قصد مني لهذه الحوارات أن تأخذ وقتاً أطول بمعدل خمس عشرة دقيقة من المعتاد. وقد أكدت هذه الحوارات على ما كنـت أعرفه: سوف يكون هناك هياج مجنون في قاعة اللقاءات الصحفية يتمحور بشكل كلي تقريباً حول تسريب هوية فاليري بليم.

منـذ أن استشهد نوفاك «باثنين من كبار المسؤولين في الإدارة» نشرا معلومات عن هويـة بليم، افترضت وسائل الإعـلام أن مسؤولي البيت الأبيض هـم المسؤولون عن هذا التسريب.

كان كارل روف الـذي يعتـبره منتقـدو البيت الأبيض مانعة الصواعـق، والعقل المدبر الميكيافيللـي النزعـة للرئيس، هـو المشتبه به ضمن التخمينـات في طاحونة الشائعات في واشنطن. تم استحضار اسمه مراراً من قبل الصحفيين خلال الحوارات التي حصلت في ذلـك اليـوم، واللقاء الصحفي الذي حصل فيما بعـد. وفي كل مرة، كنت أرفض فكرة أن يكون متورطاً في ما جرى.

ينتهـي اللقاء الصحفـي عادة عندما يقول المراسل السلكـي الجالس في الصف الأول سواء من وكالة رويترز أو الأسوشيتدبرس، أيهما يكون قد غطى ما يجري في البيت الأبيض مـدة أطول: «شكراً». ولذا، فإن مـدة اللقاء الصحفي يمكن أن تتراوح بين عشرين دقيقة كحـد أدنى، ومعـدل وسطي يتراوح بين ثلاثـين وخمس وثلاثين دقيقـة، ويمكن أن يصل إلى مـا بين خمس وأربعين دقيقة، وخمس وخمسين دقيقة كحد أقصى. وكان اللقاء اليوم قـد أخذ مداه الزمني الأقصى. في أغلب الأيـام، يشير سجل اللقاءات الرسمي في البيت الأبيض، والذي يوضع في متناول الأيدي بعد ظهر كل يوم إلى طرح نحو عشرة موضوعات في ذلك اللقاء. أما اليوم، فهناك فقط موضوعان: التحقيق بشأن التسريب، والعراق.

لم تعـطِ الصحافـة أو أنا، السجالات داخل قاعة اللقـاءات الصحفية بعداً شخصياً. فقـد كنا نؤدي عملنـا فقط. كان واجبي مساعدة الرئيـس في تسويق مخططات وتوضيح آرائه وسياساتـه بأمانة ودقة، وبالطريقة التي يفضلها. أما مهمة الصحافة فتتلخص في نقـل أخبـار الرئيس وإدارتـه، وتحميلنا المسؤولية عـن قراراته وسياساتـه، والتدقيق في طريقتـه في الحكم، وكذلك طريقة أركانه ومستشاريه. وعادة ما يكون الصحفيون الذين يغطون ما يجري في البيت الأبيض من بين الأفضل في مجال عملهم.

وهكـذا، فبعـد ظهر يـوم الاثنـين ذاك، ولم يكـن قد مضـى على استلامـي منصب السكرتـير الصحفي سوى أقل من ثلاثة أشهر، كنت مستعداً لخوض معركة كلامية. كان

هناك حشد صحفي كبير في قاعة اللقاءات الصحفية. بعض «الثابتين» (من المصورين) كانوا جاهزين لالتقاط صورة أو اثنتين تتناسب والعناوين التي ستتصدر الصفحات الأولى التي ستطبع في صحف البلاد صبيحة اليوم الثاني؛ وإذا استطاعت الصحافة أن تحشرني في زاوية، فستكون الصورة غير مرضية. تمت تهيئة الكاميرات المحمولة العائدة إلى عدة شبكات لأربعة أو خمسة من المصورين وتثبيتها على أعمدة ثلاثية القوائم على بعد ثلاثة أو أربعة أقدام إلى يساري، بالإضافة إلى كاميرا تدور بشكل مستمر بين الداخل والخارج خلف كتفي الأيسر. كانت شبكات الكبل تتهيأ للبث المباشر على الهواء وذلك بهدف تغطية واحد من الأخبار الرئيسة في ذلك اليوم: البيت الأبيض قيد التحقيق بسبب ما نقل عن تسريب معلومات سرية عن مسؤول سري – وهذه تشكل جناية محتملة إذا حدثت بشكل مقصود ومتعمد.

أحسست بأنني جاهز تماماً. الجلسة الإعدادية التي كانت بمثابة «منصة قتل»، والتي تدربت عليها قبل عقد اللقاء الصحفي كانت مفيدة جداً (وهي بمثابة لقاء صحفي تمثيلي غير رسمي مع كل من نائبة السكرتير الصحفي ومساعدتها، وهو ما منحني فرصة التدرب على الإجابة على أسئلة وضبط إيقاع إجاباتي). كان كل من كارد وغونزاليز قد أكدا لي سلفاً أن أحداً في البيت الأبيض غير متورط في الكشف عن هوية بليم.

وبما أن الموضوع طرح في الحوارات الصباحية مع الصحفيين، فقد قمت بزيارة للرئيس قبل عقد اللقاء الصحفي للتأكد من موافقته على قولي في معرض إجابتي عن أسئلة تتعلق باحتمال أن يقوم بطرد أي شخص يثبت تورطه في تسريب معلومات سرية، وخصوصاً تسريب اسم فاليري بليم. أخبرته بأنني أنوي القول إن أي شخص متورط في هذا الأمر لن يبقى في طاقم الإدارة.

وافق الرئيس على ما قلته، وأضاف بحزم: «سأطرد كل من يثبت تورطه في ذلك». لقد حصلت على موافقته الكاملة وغير المشروطة. سألني فيما إذا كنت قد حثثت الصحفيين على التقدم للإدلاء بأي معلومات إذا كانوا يعرفون الأشخاص الذين تسببوا في التسريب. قلت له إنني سأذكر لهم هذا الطلب. قال: «حسنٌ؛ أظن أن عليك فعل ذلك». كنت أشعر

بالأدرينالـين ينسكب في عروقي وأنا أعطي الإشارة لجوش ديكارد، وهو أحد مساعديَّ في الفريـق الصحفي الذيـن يبذلون جهوداً كبيرة ولا يدفع لهم سوى القليل كي ينبه إلى أننا سنبـدأ بعد دقيقتين، بحيث تستطيع شبكات الأخبار التهيئة لنقل حي ومباشر في اللحظة التي ألج إلى قاعة اللقاءات الصحفية.

عندمـا يرى الزوار قاعـة اللقاءات في البيـت الأبيض، يقولون عـادة «إنها تبدو أكبر علـى شاشة التلفزيون». إنها مكان ضيق وقذر، خصوصاً في الأيام التي تكون فيها معظم المقاعد الثمانية والأربعـين مشغولة، ويكون صحفيون آخرون واقفين في الممرات الضيقة. سـوف تشاهد تحـت الأنوار المبهـرة العديد مـن الميكروفونات وهي تتدلى مـن السقف، وكذلـك المصورين الثابتين، وفرق مصوري الشبكات متلاصقين إلى جانب بعضهم بعضاً لدرجـة أنهم يكادون يتسببون في انهيار المنصـة؛ في هذا المشهد، لك أن تتخيل الحصول على مقعد مريح.

رفضت بحدة التلميحات التي تضمنتها الأسئلة، وتحديت الصحفيين أن يقوموا بتقديم أي معلومـات تشير إلى أن عاملين في البيت الأبيض مسؤولون عن عملية التسريب. كررت التأكيـد أن الرئيـس يتوقع من كل العاملـين في إدارته أن يلتزموا بأعلـى معايير الأخلاق المهنية والسلوكية، وأن أحداً لم تمنح له صلاحية تسريب اسم زوجة ويلسون.

حاول تيري موران، المراسل الرئيس لشبكة ABC News في البيت الأبيض أن يحشرني في الموضـوع الذي كنت قد أكدت عليه في الحوارات التي جرت صبيحة ذلك اليوم ومفاده أن الرئيس متأكد من أن كارل روف لا علاقة له بالتسريب. كانت صورة لقائي مع الرئيس مـا تزال حيـة في ذاكرتي، ولكن من دون قصد مني، غفلـت أن أذكر، في معرض إجابتي علـى السـؤال، الأسباب التي حدت بالرئيـس إلى عدم توجيه البيـت الأبيض إلى تقصي الأمـر وكشـف جذور هذا اللغـط، أو عدم إظهـار أي اهتمام في معرفة مـا إذا كان كبير مستشاريه متورطاً. وهو ما أدى في الحال إلى التساؤل: كيف «علم» الرئيس بذلك؟

كان مـن الأسهـل إهمـال ما جـرى لاحقـاً بالكلية، لـو تم طرحه أثنـاء الحوارات الصباحيـة. ففي اللقاء الصحفي المنقول بواسطة عدسات التصوير، «تراقصت حول

السـؤال» قبل أن أكرر جملة أستخدمها أحياناً: «لسنا متعودين على مناقشة الأحاديث التي تجري بين الرئيس وكبار مستشاريه».

في جوابي على سؤال طرحته دانا باش من محطة CNN حول السبب الذي دعا الرئيس إلى عـدم اعتبـار المسألـة موضوعاً أخلاقياً نظـراً إلى أنه ألزم نفسه حـين كان مرشحاً بإعـادة فرض معايير الشـرف والقيم الأخلاقيـة إلى البيت الأبيض، قلـت: «لقد أرسى الرئيس معايـير أخلاقية عالية المستوى وطلب من الأشخاص العاملين في إدارته الالتزام بهـا. لقد أوضح بشكل غـير قابل للبس لجميع العاملين في إدارته أنه يتوقع منهم الالتزام بأعلـى معايير السلوك الأخلاقي. ولوثبت أن أحداً في هذه الإدارة أياً كان موقعه، متورطٌ في هذه المسألة، فإنه لن يستمر في العمل ضمن إدارته».

تم ترداد هذه الكلمات الأخيرة كثيراً في وسائل الإعلام على امتداد السنوات اللاحقه خصوصاً بعد أن ظهرت إلى الضوء معلومات مهمة. كنت واثقاً كل الثقة في ما قلته بسبب أننـي حـزت على موافقـة الرئيس على قـول ذلك، وبسبـب أن التزامـه بمعايير الشرف والاستقامة، وهو الالتزام الذي كان غالباً ما يردده، محفور في ذهني.

عندمـا أعلن عـن ترشحه للرئاسة سنة 1999، قال بوش: «سـوف نثبت أن السياسة، بعـد حقبة تم فيها تمريغ المثل والقيم العليا بالوحل، يمكن أن تكون أسمى وأفضل. سوف نمنح بلادنا فرصة لبداية جديدة بعد موسم من التشكيك بالقيم».

في الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني، يناير، سنة 2001، اليوم الأول لنا في البيت الأبيض، ذكّرنـا الرئيس جميعاً نحـن العاملين في إدارته، وذلك في احتفـال أداء القسم العلني لكبـار أركان العاملين في البيت الأبيض، بضرورة الالتزام «بالمعايير السامية التي تعد من متطلبات المناصب العليا» وتجنب «حتى مجرد السماح بظهور المشكلات».

كان التزامه بالمثـل الأخلاقية العليا قد جعل العديد منا، نحن العاملين معه، فخورين بتلبيـة النـداء كي ننضـم إلى فريقه. كنـا نؤمن بأن هـذا الرئيس ملتزم بشـكل لا يقبل المساومـة، بأشياء أفضل ممـا رآه الأمريكيون من أسلافه من القـادة المنتخبين. كما أنه بنى سمعته جزئياً على أساس أنه يقول ما يعني، ويفعل ما يقول.

الآن، وبعـد سنتين ونصف على انتخابه، بدأ السـؤال يدور في أذهان الناس، حول ما إذا كانت هذه الإدارة ما تزال ملتزمة بهذه المعايير الأخلاقية السامية.

انتهـى اللقاء الصحفي بعد خمس وأربعين دقيقـة على بدايته. كان الوقت مناسباً كي أبـدأ بتخفيض نسبة الأدرينالين في دمي بعد هذه الجلسـة المشحونة، وأستمتع باللحظة. كانت ردة الفعل المتمثلة في الملحوظات التي تم إبداؤها بعد اللقاء الصحفي من قبل نوابي ومساعديَّ إيجابية جداً.

كانت النسخة الرسمية المكتوبة التي أصدرها البيت الأبيض للقاء الصحفي ذاك تبلغ اثنتان وثلاثون صفحـة. الصفحات الأربع والعشرون الأولى كانت مكرسة للتحقيق بشأن التسريـب. أكثر من مائة وعشرة أسئلة على امتداد ثلاث وثلاثين دقيقة ونصف الدقيقة مرت قبل أن نناقش في موضوعات لا علاقة لها بالتحقيق حول التسريب.

تلقيـت الكثير من العنـاق عصر ذلك اليوم تعبيراً عن السعـادة بالطريقة التي أدرت فيهـا اللقـاء تحت كثير مـن الضغط. تلقيـت المديح مـن زملائي في البيـت الأبيض وفي الإدارة، وحتى من عدد من الصحفيين المتواجدين في البيت الأبيض. حتى أن بيل بلانت، وهو صحفي ساخر مخضرم يعمل مراسلاً لصالح شبكة CBS News في البيت الأبيض، قال لي: «شاهدت الكثيرين ممن شغلوا منصب السكرتير الصحفي في مواقف صعبة. لم يكن ما حدث اليوم سهلاً أبداً. أريد فقط أن أقول إنك قمت بعمل جيد».

عندمـا التقيـت بالرئيس في وقت لاحق مـن ذلك اليوم، قال كالآخريـن: «قمت بعمل جيد، اليوم». عبرت له عن تقديري لملاحظته من دون أن أعرف أنه بالفعل شاهد أي جزء من اللقاء، أو أنه ببساطة أُعلِمَ عن فحواه بواسطة زملائي من كبار الموظفين.

لا أعرف إذا كان هذا أفضل أداء قمت به في غرفة اللقاءات الصحفية، لكنني شعرت بالارتيـاح لما قمت بـه، وحتى أن شعوري أصبح أفضل بعـد أن تلقيت طائفة من العبارات اللطيفـة علـى امتداد ذلـك اليوم. أظهرت أنني علـى الأقل جاهز لأقوم بمـا عليّ القيام بـه للمساعـدة في توجيه دفة سفينـة البيت الأبيض في عهد بوش التـي تمخر عباب المياه المضطربـة في بحر حملة إعادة انتخابه. كانت نشـرات الأخبار لليلة الثانية على التوالي،

تبث في عناوينها الرئيسة قصة التسريب؛ تماماً كما كانت تفعل برامج الصباح الحوارية والصحف في اليوم الثاني.

لن تكون تلك، المرة الأخيرة. وكالحرب التي تقبع في جذور الفضيحة، فهي لن تختفي في أي وقت قريب.

obeikandl.com